الممارسة السياسية وفكرة الاستقلال عند الشيخ ابن باديس

أ. حاج عبد القادر يخلف*

كثيرة هي القضايا السياسية الوطنية التي كانت تخالج صدر الشيخ عبد الحميد بن باديس وتشغل باله، لتطرح نفسها كأسئلة ملحّة، فكان لزاما عليه الإجابة عنها دون تمرّب وبكلّ صراحة بردود مقنعة وحجج دامغة تجعل من كيد الحكومة الاستدمارية الفرنسية في نحرها، وتؤسس لفكر وطني يعبّر عن آلام الشعب الجزائري وآماله وحقّه في الحرّية كسائر أمم الدنيا.

وإيمانا منه بفقه الأولويات فقد أرسى ابن باديس أوّلا القواعد التي يبنى عليها البيت الجزائري الكبير، وذلك بالدفاع عن الهويّة التي تحفظه من الذوبان (الإسلام-العروبة-الوطنية)، وتحول دون سياسة الفسخ والمسخ التي كانت الإدارة الاستعمارية تروم من ورائها إلى محو معالم الشخصية الجزائرية.

وبعد ذلك وجدنا الرجل يساير الأحداث بكياسة السياسي المحنّك، الذي له دراية بخبايا الأمور السياسية ومجرياتها، فلا تفوته جزئية من جزئياتها إلاّ وكان له منها موقف، فقد دعا إلى الوحدة الوطنية ردّا على سياسة فرّق تسد، التي مآلها تفتيت قوى الجزائريين لتذهب ريحهم، وتوقع في خندق واحد مع الحركة الوطنية، مؤمنا بالتعدّدية وتظافر الجهود خدمة لجمع الكلمة ولمّ الشمل وتوحيد الصّف الوطني.

وثالثة الأثافي أنّه يتحدث عن الاستقلال في وقت مبكّر، حيث كانت بعض أطياف الحركة الوطنية ترى في ذلك ضربا من الخيال، وعدوا باتجاه السّراب، وإن لم يكن طرحه بنفس اللهجة التي كان عليها الطّرح الاستقلالي في حزب الشعب، إلاّ أنّ القناعة لدى التيارين كانت واحدة.

* - أستاذ العلوم الاجتماعية في التعليم المتوسط، وأستاذ مستخلف في قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

فكيف حدث كلّ هذا؟ وما هي الكيفية التي مارس بها السياسة؟ وكيف تبلورت عنده فكرة الاستقلال؟ وهل في النصوص التي تركها لنا بين ثنايا ما كتب وما سُمع عنه من خطب أجوبة عن هذه التساؤلات؟

ينطلق الشيخ عبد الحميد بن باديس من فكرة الحفاظ على المقوّمات، التي تشكّل خصوصية الوطن الجزائري، ليؤكد استقلالية الذات الجزائرية، وعدم قابلية انصهارها وذوبانها في بوتقة واحدة مع جسم غريب لا تمتّ إليه بأيّة صلة. فالارتباط بفرنسا واقع مرّ فرض على الجزائريين كرها، ورغم ذلك لا ينبغي أن يكون هذا الواقع على حساب الذات الجزائرية، ومن ثمّ فهو يفرّق بين الجنسية القومية والجنسية السياسية، حيث يرى "أنّ الأمّة الجزائرية ترضى بالارتباط بفرنسا في حقوقها وواجباتها، وهي الجنسية السياسية، ما دامت محترمة في جنسيتها القومية، وهي تلك المقوّمات والمميّزات من لغة وعقيدة وتاريخ وشعور مشترك مع من يشاركها في هذه المقوّمات والمميّزات، بشرط لا بدّ منه: وهو أن يكون التساوي تامّا في جميع تلك الحقوق، دون تخصيص لحق دون حق ولا تمييز لطبقة عن طبقة"[1].

ويفهم ممّا تقدّم أنّ ابن باديس كان يريد افتكاك حقوق المواطنة للجزائريين ليتخلّصوا من التهميش، ويتمتعوا بما يتمتع به الغرباء والأجانب من المعمّرين على أرض ليست لهم وطنا. ويؤكّد هذا الكلام ما كتبه المؤرّخ أحمد توفيق المدني، الذي يذكر أنّ ابن باديس قال له بطمّ طميمه: "لم تحن السّاعة بعد لهذا (أي الاستقلال السياسي)، ويكفينا الآن أن نحرز على استقلال الدّين وحرّية العربية، وأن لا تضيع صبغتنا الدّينيةالإسلامية، مع الإحراز على الحقوق الفرنسية"[2].

ويختم الشيخ عبد الحميد مقاله في مجلّة الشهاب عن الجنسية القومية والجنسية السياسية بقوله: "وبعد، فنحن الأمّة الجزائرية لنا جميع المقوّمات والمميّزات لجنسيتنا القومية، وقد دلّت تجارب الزمان والأحوال على أنّنا من أشدّ النّاس محافظة على هذه الجنسية القومية، وأنّنا ما زدنا مع الزمان إلاّ قوّة فيها وتشبثنا بأهدابها، وأنّه من المستحيل إضعافنا فيها، فضلا عن اندماجنا أو محونا"[3].

ويستشف من هذه النصوص أنّ ابن باديس كان يريد إتباع سياسة تعتمد على المرحلية، للوصول إلى تحقيق الهدف المنشود لكافة الجزائريين، ألا وهو الحق في تقرير المصير، فالتطلّع إلى

الأفق البعيد يوحي للّبيب بأنّ ابن باديس كان صاحب بعد نظر، وقد اتخذ الأسباب التي تؤدّي إلى الاستقلال رويدا رويدا.

لقد صرّح ابن باديس في وقت سابق أنّ "الاستقلال حق طبيعي لكلّ أمّة من أمم الدنيا، وقد استقلّت أمم كانت دوننا في القوّة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدّعون علم الغيب مع الله، ويقولون إنّ حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، فكما تقلّبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أنّها تزداد تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير بل إنّه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرّقي المادّي والأدبي، وتتغيّر فيه السياسة الاستعمارية عامّة والفرنسية خاصّة، وتسلك فرنسا مع الجزائر مسلك إنكلترا مع أستراليا وكندا واتحاد جنوب إفريقيا، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلّة استقلالا واسعا، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحرّ على الحرّ"[4].

وبنظرة فاحصة لما سبق ذكره ندرك حقيقة مفادها أنّ ابن باديس كان يرى أنّ دوام الحال من المحال، وأنّه مهما طال اللّيل فلا بدّ للفجر أن ينبثق، ومن ثمّ فإنّ شقّ طريق الاستقلال بالنّسبة للجزائر يمرّ عبر بلوغ الرّشد الذي يؤهلها لكي تصبح شريكا تعتمد عليه فرنسا وتتعامل معه معاملة الحرّ للحرّ، ويواصل كلامه بقوله: "هذا هو الاستقلال الذي نتصوّره، لا الاستقلال الذي يتصوّره خصومنا المجرمون، استقلال النّار والدماء، وهذا هو الاستقلال الذي نستطيع أن نحرز عليه مع الوقت، وبإعانة فرنسا وبإرادها وأنّنا لا نخشاه ولا نخشى البحث فيه"[5].

ويبدو أنّ ابن باديس كان متفائلا إلى درجة كبيرة بأنّ فرنسا ستسلك مع الجزائر ما سلكته إنكلترا مع أستراليا وكندا واتحاد جنوب إفريقيا في منحهم الاستقلال، وقد عقد على ذلك آمالا جعلته يستبعد الاستقلال الذي يمرّ عبر الأشلاء والدّماء، بحكم إيمانه بأنّ عامل الزمن والظروف المناسبة كفيلان بجعل فرنسا بإرادها تعين الجزائر على تخطّي حاجز التبعية إلى برّ الاستقلال.

ويمضي الوقت الذي كان يراهن عليه الشيخ عبد الحميد وتمرّ السنون، ولا تستجيب فرنسا الاستعمارية لأدنى مطالب الشعب الجزائري، فهي في كلّ الأحوال تصمّ آذانها عن الإصغاء، غير آبهة بما قد يولد من رحم سياسة العنف التي تتعامل بها مع الجزائريين.

كشفت الأيّام ما كان يجهله ابن باديس من أمر السياسة الفرنسية، فبدأ الشك يساوره في صدق نوايا فرنسا بخصوص مستقبل الجزائر، فعبّر عن ذلك بقوله: "إنّ الأمّة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيّام عسرها ويسرها، ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها، فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية (الحرية- المساواة والأخوّة)، من رفع مستوانا العلمي والأدبي، بتعميم التعليم الحديث، وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا في إدارة شؤون وطننا الجزائري"[6].

ويلاحظ أنّ الشيخ ابن باديس لا يتردّد ولا يتوانى في مواجهة تجاهل الاستعمار لجزاء الأمّة الجزائرية، وتذكيره بالمبادئ التي يدّعي جزافا أنّ دولته قامت عليها، وكأنّي به يقول لفرنسا: أين هي مبادئكم التي تدّعون بها من واقع الشعب الجزائري؟ وأين هو زعمكم بأنّكم أتيتم لتحضير الشعوب ومساعدتها على النهضة واللحاق بركبكم الحضاري. فما يوجد على أرض الواقع ببلادنا يكذّب إدّعاءاتكم، وإن كنتم صادقين فيما تدّعون أثبتوا لنا صحّة ذلك في تعاملكم معنا، وسنكون أوّل المقتنعين والمؤمنين بهذه المبادئ التي تدّعون.

وحفاظا على الجمعية وما تقوم به من نشاطات تربوية وتعليمية وتثقيفية وسياسية من التعرّض للحلّ ومصادرة ما تكتبه أقلامها (خصوصا بعد تعطيل السنّة وإصدار الشريعة)، نجد الشيخ عبد الحميد يخفّض من لهجته في مخاطبة الإدارة الاستعمارية، حيث يستعمل اللّيونة التي قد توحي لضعفاء العقول وناقصي الفهم أنّها مداهنة، ونلمس ذلك مثلا في قوله: "كونوا كما تشاؤون أيّها السّادة فلكم- وأنتم تمثلون كلّ احترامنا- وظنّوا بنا ما تشاؤون، فإنّا على بصيرة من أمرنا ويقين من استقامة خطّتنا ونيل غايتنا، ومهما تبدّلت اعتقاداتنا في أناس بتبدّل معاملاتهم لنا، فلن تتبدّل ثقتنا بفرنسا وقانونها"[7].

ويعلّق الأستاذ الدكتور عمّار الطّالبي على هذا النص بقوله: "هذا أسلوب سياسي استعمله ليحقّق به أهدافه البعيدة"[8]. ويذكر الشيخ حمزة بوكوشة- وهو أحد أعضاء جمعية العلماء- أنّ ابن باديس "كانت له في الاحتجاج على الحكومة طريقتان: الأولى باسمه رئيس جمعية العلماء، وهي الاحتجاجات التي لا تخرج عن دائرة القانون، والثانية باسمه الخاص، وهي الاحتجاجات اللاّذعة التي يصف فيها الاستعمار بكلّ نقيصة، ويفضح فيها مكايده ويكشف مخازيه، وسألناه مرّة لماذا هذه التفرقة في الاحتجاجات؟ فقال: الاحتجاجات التي أمضيها باسم جمعية العلماء أحافظ فيها على الجمعية، والاحتجاجات التي أمضيها باسمي لا أحافظ فيها على شخصي"[9].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الصحافة والقائمون على الإدارة الفرنسية حاولوا التضييق على جمعية العلماء، لتقزيم عملها وحصره في الجانب الديني دون المشاركة في الجانب السياسي، واضعة إياها في قفص الاتهام، ومن ذلك مثلا نشرها لتصريحات الوالي العام في (البتي باريزيان)، فكان ردّ الشيخ ابن باديس كالتالي: "ثمّ ماهذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان من هنالك، ويحرم ويقبّح إذا كان من هنا؟... كلاّ لا عيب ولا ملامة وإنّما لكلّ امرئ ما اختار، ويمدح ويذمّ على حسب سلوكه في اختياره.."[10]، وصرّح في محاضرة ألقاها بتونس في ذكرى البشير صفر فقال: "لا بدّ لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حقّ النهوض إلاّ إذا نهضت السياسة بحق"[11].

وإذا كانت الجمعية تمارس السياسة بحكمة ورشد، فإنّها لم تجازف ولم تغتر بطلب اعتمادها كحزب سياسي، بل ظلت تصون اسمها من التعرّض لأيّ خدش وتحافظ على سمعتها، وكانت في كلّ الأحوال ترى نفسها الجمعية ذات الصبغة الدّينية، التي تذود عن بيضة الجزائر وتدافع على كرامة أبنائها، معتبرة نفسها فوق الحزبية، وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطاب عرض فيه حالة الجمعية الأدبية، وممّا جاء فيه: "إنّ الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب، ولا تعادي حزبا منها، وإنّما تنصر الحقّ والعدل والخير من أيّ ناحية كان، وتقاوم الباطل والظلم والشرّ من ايّ جهة أتى، محتفظة في ذلك كلّه بشخصيتها ومبادئها محترسة في جميع مواقفها، مقدّرة للظروف والأحوال بمقاديرها"[12].

ولّما كانت المصلحة الوطنية فوق كلّ اعتبار، "كانت الجمعية بجميع المنتمين إليها بطبيعة علمهم وبصرهم مع النواب الأحرار، الذين تقدّموا للنيابة عن الأمّة بعد مجيء الحركة السياسية، ففاز هؤلاء في أكثر الدوائر، ممّا جعل الحكومة تنقم على الجمعية معتقدة تأييد الجمعية للنواب الأحرار، ونسبت يقظة الأمّة وحسن اختيارها وعدم امتثالها للإيعازات وعدم خوفها من التهديدات، إلى ما بثته فيها الجمعية من حياة"[13].

وتجسّدت وحدة الجزائريين في أوّل مؤتمر من نوعه في التاريخ الجزائري، ألا وهو المؤتمر الإسلامي الجزائري في 7 جوان **1936**، الذي "شمل كافة الأطياف السياسية، من نواب

وشيوعيين ومناضلين وجماعة من العلماء باسمهم الخاص، لا بصفتهم أعضاء لجمعية العلماء، حفاظا منهم على سمعة الجمعية ممّا قد يحاك ضدّها من دسائس ومؤامرات"[14].

وقد اتفق المؤتمر على إسناد الرّئاسة لعبد الحميد بن باديس، نظرا لمكانته ومركزه، وطلب منه صياغة ما يراه من المطالب، فكان منها: اللغة العربية- الديانة (المساجد)- التعليم الديني- القضاء، إلى جانب المطالب السياسية وأهمّها المساواة في الحقوق السياسية، بأن يكون للمسلمين الجزائريين نواب يمثلونهم بالبرلمان الفرنسي، مع المحافظة التامّة على جميع الذاتية، وقد نشر ذلك تحت عنوان: حقوق الأمّة الجزائرية التي تطلبها من الأمّة الفرنسية[15].

وسافر الوفد إلى باريس ليلتقي بالحكومة الفرنسية، وحصلت مشادّات بين الوفد ورجال الحكومة، جعلت وزير الحربية م.دالادي إذ ذاك يصرّح "أنّه لا يمكنه أن يوافق على إعطاء المسلمين الجزائريين النيابة في البرلمان مع محافظتهم على الشريعة الإسلامية في الحقوق الشخصية، وقال لهم: إنّ فرنسا معها مدافع، فقال له عبد الحميد بن باديس: والجزائر معها الله"[16].

ورغم أنّ الوفد عاد فارغ اليدين، إذ لم يحقق أيّ نتيجة تذكر، فإنّه استطاع أن يعرّف حكومة فرنسا وأحزابها وصحافتها أنّ وراء البحر أمّة جزائرية إسلامية، تطالب فرنسا بحقوقها وتحافظ تمام المحافظة على شخصيتها ومقوّمات شخصيتها[17].

واعتبر البعض هذه المشاركة غلطة سياسية كبرى، انتقدت عليها جمعية العلماء والشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره المناضل بصلابة عن الشخصية القومية للشعب الجزائري، وذلك في تبنّيه سياسة ومطالب المؤتمر، وهو ممّن يقاوم سياسة الاندماج مقاومة عنيفة[18]. ولعلّ الرّد على هذا الرّأي يمكن أن نستشفّه ممّا كتبه المؤرّخ شارل أندري جوليان، الذي يقول عن ابن باديس: "ونزعته الإدماجية تتضارب ودعايته"[19]، والحقّ كما يقال ما شهدت به الأعداء.

ومهما قيل عن هذه التجربة فإنّ ابن باديس استنفد الأسباب التي جعلته يقيم الحجّة على فرنسا ويغيّر نظرته إلى سياستها، فقد مدّ من خلال الوفد يده إلى الحكومة الفرنسية للتعاون، في إطار يتمّ الاتفاق عليه والعمل بموجبه، لكنّ هذه الحكومة ضيّعت الفرصة، وهو ما جعل الشيخ عبد الحميد يخاطب الشعب بقوله: "لقد عملت وأنت في أوّل عملك فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام، واعلم أنّ عملك هذا على جلالته ما هو إلاّ خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إمّا الحياة وإمّا الممات"[20].

وكتب بعدها مقالا بعنوان: هل آن أوان اليأس من فرنسا؟ من أهمّ ما جاء فيه: "كذب رأي السياسة وساء فألها، كلاّ والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل، وإنّما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية"[21].

وممّا تقدّم ذكره يتضح لنا أنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس وصل إلى درجة من اليأس جعلته يستعمل كلمات نارية تؤكّد نقمته على فرنسا وسياستها ووعودها الكاذبة، التي لم تكن سوى مجرّد كلام معسول يسترعي انتباه الجزائريين لاستدراجهم باللعب على وتر عامل الوقت، لتثبيط العزائم وقتل كلّ مبادرة سياسية حقيقية، من شأنها أن تؤدّي إلى تقارب إيجابي بين الحكومة الفرنسية وما يطمح إليه الشعب الجزائري وطبقته المثقفة، ونجده يصف محاولات الضغط الذي تقوم به الجرائد الفرنسية على حكومتها لمنع إحراز الشعب الجزائري أيّ حقّ من حقوقه بـ"سياسة وخز الدبابيس، التي تنتهي غالبا بفقد الشعب لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه"، ويحذّر هذه الأطراف بقوله: "إنّنا لنسدّ في أوجهكم هذا الباب إلاّ إن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله"[22].

لقد تغيّر الطرح السياسي لابن باديس، الذي أصبح يرى في الوعود الفرنسية السراب بعينه، فقرّر سياسة المواجهة حيث قام على هامش احتفالات الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر بتوجيه نداء إلى سكّان قسنطينة المسلمين، يطالبهم فيه بمقاطعة هذه الاحتفالات[23].

كان ابن باديس في نظر المؤرّخين الفرنسيين وعلى رأسهم شارل أندري جوليان يعتمد مثل التعالبي بتونس على قوى الإسلام دون سواها، لإحياء بلاده والسير بها نحو الاستقلال[24]. ويذكر أنّه لم يظهر ميلا إلى مشروع بلوم- فيوليت، وفضلا عن ذلك أفتى بردّة من تجنّس بجنسية غير إسلامية[25].

ولمّا كانت الحرب العالمية الثانية قاب قوسين أو أدنى من إشتعال لهيبها، وجهت هيئة مكوّنة من الأغوات والقياد تعرف بـ"جماعة الميعاد الخيري" إلى جانب جماعة اتحاد الزوايا وغيرهما برقيات ولاء وتأييد للحكومة الفرنسية، شذت عنه جمعية العلماء، وأحرجت الجمعية بضرورة إعلان رأيها، فطرح الشيخ عبد الحميد ذلك على المجلس الإداري للجمعية، وبعد نقاش مطوّل طلب الشيخ من الأعضاء التصويت برفع الأيدي، فكانت النتيجة أربعة أصوات قالوا بإرسالها، منهم الطيب العقبي، وأثنى عشر قالوا بعدم إرسالها، واحتفظ عبد الحميد بصوته، وممّا قاله: "لو كانت أغلبيتكم تؤيّد إرسال البرقية ما كنتم تروني في مجلسكم هذا بعد اليوم"[26].

ورفض ابن باديس أن يوجّه شهادة ولاء إلى الحكومة سنة 1938، كما رفض كلّ تصريح تضامني مع المصالح الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية[27]. وبعد أسبوعين من اندلاعها فرضت الإدارة الإقامة الجبرية على عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، ومنعوه من مغادرتها[28].

إنّ الأمل في الاستقلال كان يشكّل أساس وطنية حزب الشعب وجمعية العلماء[29]، لذلك وجدنا الشيخ عبد الحميد يحتجّ على الإدارة الفرنسية بعد قيامها بإلقاء القبض على الزعيم مصالي الحاج والشاعر مفدي زكرياء، والسّادة بوغرافة والاحول الحسين ومسطول، معتبرا ما تسلكه هذه الإدارة مسلكا أهوجا، مع رجال حزب الشعب الجزائري، الذين يمارسون أعمالهم جهارا وفي وضح النهار[30].

ويبدو أنّ مصالي الحاج كان يكنّ للشيخ عبد الحميد احتراما كبيرا، ويقدّر بإعجاب جلائل الأعمال التي قام بها، فقد صرّح قائلا: "إنّ وفاة هذا الزعيم الرّوحي، تعتبر أكبر كارثة لا على الإسلام وحده، بل على الحركة الوطنية أيضا"[31].

وما من شكّ أنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يراهن على الأجيال الصّاعدة في افتكاك الجزائر من أسرها، وانتشالها من براثين الجهل الذي أريد لها، لتبلغ يوما ما طريق الحرّية، فقد سئل ذات مرّة من أحد تلامذته: "بأيّ شيء تحارب الاستعمار؟ فأجاب سائله على الفور: أنا أحارب الاستعمار لأنّني أعلّم وأهذّب ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجدبت على الاستعمار، شعر في النهاية بسوء المصير"[32].

كما عبّر عن آماله في تحقيق النصر على أيدي النّاشئة من أبناء الجزائر، وذلك في قصيدته الخالدة، التي ردّ فيها على أدعياء التنصير والفرنسة والاندماج والتجنيس بقوله:

شعب الجزائر مسلـــم   وإلــى العروبـــة ينتسـب
من قال حال عــن أصله   أو قـــال مـــات فقـــد كذب
أو رام إدمـــاجا لـــه   رام المحـــال مـــن الطـــلب

إلى أن يقول:

يا نشء أنت رجاؤنـــا   وبك الصبـــاح قـــد اقترب
خذ للحيـــاة سلاحـــها   وخـض الخطـوب ولا تهب[33]

ومن هذه الأبيات ندرك نظرة الشيخ عبد الحميد بن باديس المستقبلية للجزائر، التي ستحرّر بسواعد الأحرار من أبنائها، الذين سيكونون رجال الغد المشرق بسلاح العلم والإيمان، ثمّ بالسلاح الحقيقي الذي يقضّ مضاجع الاستعمار، ويهدم بنيانهم من أساساته.

إنّ الشيخ عبد الحميد كان يعشق الحرّية ويحلم باليوم الذي يرى فيه الجزائر مستقلّة، فقد روى عنه أحد مريديه أنّه في عام **1937** بمناسبة رجوع رئيس حزب الشعب الجزائري مصالي الحاج من فرنسا إلى الجزائر، ومطالبته بالاستقلال التّام للجزائر، وكان الشيخ مجتمعا مع جماعة من أنصار حركته، فقال: "وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف؟ وما غايتنا من عملنا غلاّ بتحقيق الاستقلال[34].

كما أثر عنه في موقف آخر حينما اندلعت الحرب العالمية الثانية، أنّه اجتمع بالشيخ حمزة بوكوشة، وكان حاضرا الاجتماع تلميذه الشيخ محمد بن الصّادق المليانى ليس غير، فقال: "هل لكم أن تعاهدوني"، فلمّا مدّا إليه يديهما بالمصافحة، قال: "إنّيسأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب"[35].

وروى تلميذ أخر من تلامذته أنّه كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال أوراس، ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالا يساعدونه[36].وصرّح في أوائل سنة **1940** قبل وفاته في اجتماع خاص مقسما فقال: "والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمّة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتها[37].

وعلّق الشيخ حمزة بوكوشة على ما جرى بينه وبين الشيخ عبد الحميد بن باديس لآخر مرّة اجتمع به بقوله: "وهكذا كانت نيته- أي إعلان الثورة ضدّ فرنسا- ولست أدري كيف تكون الحالة لو عاش فينا إلى ذلك الحين!

الخاتمة: إنّ الخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذا العرض يمكن حصرها في الاستنتاجات التالية:

- لم يكن ابن باديس من أولئك الذين يمارسون السياسة على إطلاقها، بل كان يقيّد نفسه بضوابطها الشرعية، فلم يلطّخ قلمه كما لم يجر على لسانه سياسة الكذب واللف والدوران، ولا سياسة الغاية تبرّر الوسيلة التي غالبا ما يلجأ إليها معظم السّاسة، ذلك أنّه كان يعتبر السياسة من الدين، ولا يجد حرجا في التصدّي لما تمليه الحاجات والضرورات بعيدا عن

السقوط في مغبّات المحظورات، إيمانا منه بروح المسؤولية وما تقتضيه من التضحية، ومن منطلق ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب.

– إنّ أوّل جدار أقامته جمعية العلماء وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس لمنع ضرب الشعب الجزائري في أصوله، يتمثل في تحديد عناصر الهوية الجزائرية، التي لا تقبل النقاش ولا ترضى بضياع الجنسية القومية، ممّا يحفظ للجزائر خصوصيتها العربية الإسلامية والتاريخية، ويجنّبها الذوبان والانحلال، فإن كان الاندماج مع فرنسا في إطار الجنسية السياسية، التي تحفظ للجزائريين حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإنّه يتمّ على أساس معاملة الحرّ للحرّ التي تحفظ للجزائريين كرامتهم بعيدا عن التنازلات التي يشترطها المنظرون والسّاسة الفرنسيون، والإملاءات التي لا تستجيب ولا تعترف بطموحاتهم المشروعة.

– إنّ السياسة التي اعتمدها الشيخ عبد الحميد بن باديس في محاورة ومناورة الحكومة الاستعمارية تنطلق من فكرة الاعتماد على المرحلية في المطالب لتحقيق الاستقلال، فكان مبدئيا يرى العيش في ظلّ دولة اتحادية مع فرنسا للوصول إلى الاستقلال الذاتي على المدى القريب، وينتهي ذلك بالاستقلال التّام باعتراف من فرنسا، كما فعلت بريطانيا مع كندا وأستراليا واتحاد جنوب إفريقيا على المدى البعيد. وبعد أن اتضحت النوايا السيّئة والوعود الكاذبة للحكومة الفرنسية، نلمس تبدّلا في الخطاب السياسي للشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث انتقل من اللّيونة إلى الشدّة فيما كان يصدره على صفحات الجرائد والمجلاّت التي كان يكتب فيها، ووصوله إلى قناعة مواجهة العنف بالعنف.

– لقد تخطّفت المنية الرّجل وهو في أوج غضبه على الحكومة الاستدمارية، وتعدّدت الروايات التي تشير إلى أنّه كان يريد إعلان الثورة على فرنسا. وما من شكّ أنّه لو أدرك اندلاع الثورة– وإن كان هذا في حكم الغيب– لكان من اوّل الدّاعين إليها، أو على رأس المهندسين لقيامها، وأضعف الإيمان أن يكون من المباركين لها على أقلّ تقدير.

ومهما يكن فقد آمن ابن باديس بالشعب الجزائري وبقدراته على التغيير وتجسّد ذلك في جيل نوفمبر الذي شرب من نبع أفكار الشيخ عبد الحميد فقام بكسر شوكة الظالمين، وإعادة الجزائر إلى إطارها العربي الإسلامي.

الهوامش:

1- مجلة الشهاب، الجزء 12، المجلد 12، غرّة ذي الحجّة 1355هـ/ فبراير 1937م، ص505.

2- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، الجزء الثاني، دار البصائر، الجزائر- 2009، ص364.

3- الشهاب، العدد نفس المجلد والصفحة.

4- الشهاب،الجزء الثالث، المجلد12، غرّة ربيع الأوّل 1355هـ/جوان 1936م، ص145.

5- نفسه، ص141- 147. شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر- تونس، ط3، 1976، ص137.

6- جريدة المنتقد، العدد الأول الصادرفي11 ذي الحجة 1343هـ/ 2 جويلية1925م، دار الغرب الإسلامي- تونس2008، ط1، ص5.

7- جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد الأول، 24 ربيع الأول 1325هـ/17 جويلية 1933م، دار الغرب الإسلامي- تونس، ص2.

8- ابن باديس، حياته وآثاره، دار الأمّة- الجزائر، طبعة 2009، ج3،ص284-285.

9- حمزة بوكوشة، " مع عبد الحميد بن باديس في ذكراه "، في مجلّة المعرفة، السنة الأولى، العدد10، وزارة الأوقاف- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ذو الحجة 1383هـ/أفريل 1964م، ص17.

10- جريدة الصراط السوي، السنة الأولى، العدد15 قسنطينة، الاثنين 8 رمضان 1352هـ/25 ديسمبر 1933م، دار الغرب الإسلامي- تونس، ص4-5.

11- جريدة البصائر، السنة الثانية من السلسلة الأولى ،العدد71- الجزائر، الصادر في 9 ربيع الثاني1356هـ/18 جوان 1937م، ص4.

12- البصائر، السنة الثانية، العدد 83- الجزائر، الصادر في 25 رجب 1356هـ/20 سبتمبر 1937م، ص1،العمود2و3 وص2، العمود 1و2و3. ونشر كذلك بالشهاب، ج8، م13، ص357-361، الصادر في غرّة شعبان1356هـ/أكتوبر 1937م.

13- البصائر، السنة الأولى، العدد43- الجزائر، الجمعة 28 شعبان 1355هـ/ 13 نوفمبر 1936م، ص1.

14- أحمد توفيق المدني، نفس المصدر والصفحة.

15- الشهاب، ملحق ج4، م12، ربيع الثاني 1355هـ/جويلية 1936م، ص210-212. البصائر، س1، ع23، الصادر في 22 ربيع الأوّل 1355هـ/12جوان 1936م، ص1و2 (يتبع)، ثم س1، ع24، الصادر في29ربيع الأول 1355هـ/ 19 جوان 1936م، ص1-3. أحمد توفيق المدني، نفس المصدر، ص365. علاّل الفاسي، المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة- 1955، ص92.

16- حمزة بوكوشة، المرجع نفسه، ص19. أحمد توفيق المدني، نفسه، ص366.

17- الشاب، ج7، م12، غرّة رجب 1355هـ/أكتوبر 1936م، ص304-311.

18- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار- الجزائر، 1422هـ/2001م، ط5 مزيدة ومنقحة، ص 103.

19- شارل أندري جوليان، المرجع نفسه، ص135.

20- الشهاب، ج6، م12، غرّة جمادى الثانية 1355هـ/سبتمبر 1936م، ص272.

21- الشهاب، ج6، م13، غرّة جمادى الثانية 1356هـ/أوت 1937م، ص272-273.

22- الشهاب، ج12، م11، غرّة ذي الحجّة 1354هـ/مارس 1936م، ص680- 686.

23- الشهاب، ج9، م13، غرّة رمضان 1356هـ/نوفمبر 1937م، ص427- 429.

24- ش.أ.جوليان، نفس المرجع والصفحة.

25- نفسه. أنظر أيضا تفاصيل هذه الفتوى في جريدة البصائر، س3، عدد 95، 12 ذي القعدة 1356هـ/13 يناير 1938م، ص2.

26- حمزة بوكوشة، المرجع نفسه، ص20.

27- ش.أ. جوليان، المرجع نفسه، ص139 وص135.

28- حمزة بوكوشة، المرجع نفسه، ص21.

29- ش.أ.جوليان، المرجع نفسه، ص152.

30- الشهاب، ج7، م13، قسنطينة رجب 1356هـ/سبتمبر 1937م، ص339- 340.

31- علي مرحوم، " نحات من حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس"، في مجلّة الأصالة، السنة الرّابعة، عدد24، مارس- أفريل(أذار- نيسان)، مجلة تصدرها وزارة الشؤون الدينية بالجزائر- 1975، ص106.

32- باعزيز بن عمر، " عظمة الأستاذ الأكبر عبد الحميد بن باديس"، في جريدة البصائر، عدد24، الصادر في 3 مايو 1948 من السلسلة الثانية.

33- الشهاب، ج4، م13، الصادر في قسنطينة ربيع الثاني/11 جوان 1937، ص200- 202.

34- روى هذه الكلمة الأستاذ المعاصر للحركة علي مرحوم. ينظر عمّار الطّالبي، المرجع نفسه، م1، ج1، ص89.

35- حمزة بوكوشة، نفس المرجع والصفحة.

36- قال ذلك في محاضرة بمناسبة الذكرى 25 للشيخ عبد الحميد بن باديس بقاعة ابن خلدون سنة 1385هـ/1965م، والمحاضر هو الشيخ أحمد حمّاني. أنظر عمّار الطّالبي، المرجع نفسه، م1، ج1، ص89.

37- كان هذا التصريح في سهرة ببيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية، بحضور الأستاذ علي مرحوم وعبد الحفيظ جنان، ينظر عمّار الطّالبي، نفسه.